اشعة من الماضي السحيق

تاريخ البشرية المادي

في عهد الطفولة

يصعب على العامة عندنا وانصاف المستنيرين ادراك أبعد مما يقع عليه ابصارهم كل يوم في هذا العالم . فهم يحسبون الكون موجوداً على حالته الراهنة منذ البداية . والعامة عذرها ، ولا انصاف المستنيرين عذرهم . فقد يكون لاستغلاق عبارات العلم على الافهام عند الآخرين عذر مقبول ، كما قد يكون «للبروباجنده» التي تذيعها طائفة خاصة عند الاولين عذر كذلك . وسواء أصح ان يقوم هذا او ذاك عذراً ام لم يصح فالعذر كل العذر في ان العقول لم تحرر بعدُ من الخرافات القديمة التي يرجع ميراثها الى عشرات آلاف السنين ، والتي لا يزال أثرها مسيطراً حتى على عقول بعض المستنيرين ممن يؤمنون «بنظرية التطور» ولا يقوون على الجهر بها والدعوة اليها

وليست الصعوبة في نشر « نظرية التطور » وتفهمها او عبارة أبلغ ليست « رسالة التطور » قاصرة على مصر وحدها بل تتناول بلاداً ارقى مدنية من بلادنا بكثير . ففي امريكا مثلاً تقوم العقبات في سبيل تبليغ هذه الرسالة حيث قد حرمت بعض ولاياتها تلقينها في مدارسها وجامعاتها (وان كانت المحكمة العليا قد قضت ببطلان حكم الولاية في هذا الشان) . وكذلك العامة في كل مكان لا تكاد تقيم وزناً لها . ورغم كل ذلك فالدلائل كلها تدلُّ على ان البشر لا بدَّ ان يعتنقوا هذه الرسالة في زمن قصير

وما دامت القوى التي كوّنت هذا العالم دائبة على عملها بدون انقطاع ولا التفات الى رغبات المتنين فلا بدَّ ان يأتي يوم قريب يؤمن فيه كل الناس بما أثبتتهُ المباحث العلمية منذ زمن طويل من ان العالم لم يصغ في هذا القالب الذي نشاهدهُ عليه اليوم . فالحياة قد اتخذت على الارض مثلاً عدة اشكال مختلفة نتيجة لتعاقب التفاعلات الكيماوية . وبذلك تطورت حياة الكائنات البشرية في انظمتها الاجتماعية طبقاً لرقابة الانسان التي بسطها على انتاج الطعام واللباس والمسكن

واول من حمل رسالة التطور الى شعوب الارض هم دارون ، وباشوفن ، ومورغان.

والاخير اول من ادخل الترتيب المنطقي في تاريخ البشرية الاولى اي تاريخ العصور التي تقدمت التاريخ فقد قسمهُ الى ثلاثة عصور «عصر الهمجية» و« عصر البربرية» و« عصر المدنية». وجعل عصري «الهمجية» و« البربرية» و«عهد الانتقال من البربرية الى عصر المدنية» موضع عنايته . فجاء أكمل تاريخ ، واضبط مرجع . ثم عاد فقسم كل عصر من هذه العصور الى ثلاث مراحل . المرحلة السفلى ، والمرحلة الوسطى ، والمرحلة العليا، وذلك طبقاً للتقدم في انتاج وسائل القوت. وعند مورغان ان درجة تسلط الانسان على الطبيعة يتوقف على مقدرته الانتاجية لوسائل الحياة . اذ الانسان وحدهُ هو الذي حصل من بين الكائنات الحية على حق الرقابة المطلقة على انتاج الطعام . وان تقدم الانسانية وعصورها الزاهية لتعرف بازمنة الرخاء واليسر في سبل الحياة . وجرياً على تقسيم مورغان لتاريخ البشرية في عهد الطفولة نشرحهُ كالآتي

(١) عصر الهمجية

﴿ المرحلة السفلى ﴾ كانت فيها البشرية في عهد الطفولة . فكان الانسان لا يزال يعيش في محلات اقامته الاصلية : في الغابات الحارة ونصف الحارة حيث عاش زمناً طويلاً فوق الاشجار اذ بهذه الوسيلة وحدها كان يمكنهُ ان يتقي هجمات الحيوانات المفترسة الكبيرة . وكان طعامهُ الفاكهة والبندق والجذور . ومن آثار نتائج هذا العهد المهمة تكوين الكلمات المنطوقة. ولا تعرف امة واحدة من الامم المعروفة في التاريخ يتصل تاريخها بهذا العهد

وحيث ان نظرية تسلسل الانسان من المملكة الحيوانية قد اصبحت مقبولة ولا غبار عليها ، فلا مفرَّ بعد ذلك من قبول هذا الرأي وانهُ امتدَّ الى آلاف السنين

﴿ المرحلة الوسطى ﴾ وتبتدىء بابتداء الانسان بالانتفاع بالاسماك ، واستعمال النار وكلاهما يتصل بالآخر لأن السمك لا يساغ أكله بغير استعمال النار . وبهذا النوع من الأطعمة استقلَّ الانسان تمام الاستقلال عن الطقس ومحل الاقامة . حيث اخذ في اتباع مجاري الانهار وشواطئها ، وبذلك انتشر في مساحات متسعة من الارض رغم همجيته . وان انتشاره الواسع في كل القارات ليدلُّ على مدى تفلغله كما ان ميله المستمر للاستكشاف مع حصوله على النار (نتيجة الاحتكاك) خلق تاجاً جديداً في المناطق التي احتلها في النهاية فاخذ يطبخ الجذور ويخبز في التراب الساخن او في افران الارض

وترجع ادوات العصر الحجري الاول Palaeolithic المصنوعة من الحجارة غير المهذبة ولا المحددة الى ذلك العهد . ولما اكتشف السلاحين الأولين الحربة والنبوت

أضيف القنص الى قائمة طعامهم. (وبذلك ان اكل اللحوم البشرية يبتدىء في هذه المرحلة)

﴿ المرحلة العليا ﴾ ابتدأ الشر في هذا العهد باختراع القوس والسهم. ولما كان السهم والوتر والقوس ادوات معقدة استلزم اختراعها عدة تجارب وقوى عقلية متفوقة. اذ الوصول الى اختراع هذه الأدوات يتطلب التوقف على اختراعات أخرى. وهذا الاختراع جعل الصيد في هذه المرحلة حرفة عادية كما جعل القنص جزءاً منتظماً من اعمال الانسان اليومية

والمقابلة بين الأمم التي تعرف استعمال القوس والسهم والتي لم تعرف فن الفخار بعد (وهو العهد الذي يبدأ به مورغان تاريخ الانتقال الى البربرية) نجدها تشترك في ابتداء سكنى القرى، ومراقبة الطعام، والأوعية الخشبية، ونسج حاء الاشجار باليد، وعمل السلال من قصب الغاب والنحاء، وتحديد الادوات الحجرية. وعلى العموم فأن النار والفأس الحجرية كانتا أداتين للحفر فوجد الانسان هنا وهناك اخشاباً والواحاً لبناء البيوت. وامثال هذه المحسنات وجدت بين هنود امريكا الذين يستعملون السهم والقوس ولا يعلمون شيئاً عن الفخار بعد. والسهم والقوس في العصر الحجري بمثابة السيف الحديدي عند البرابرة، والسلاح الناري عند المتمدنين اذ كان سلاح السيادة يومئذ

(٢) عصر البربرية

﴿ المرحلة السفلى ﴾ وتؤرخ هذه المرحلة منذ عهد ادخال فن الفخار. ويرجع اكتشافه لمادة تغطية الخشب او الأوعية بالطين لحفظها من النار. ولم يمض زمن كبير حتى اكتشف ان الطين وحده بدون تغطيته بمادة اخرى يصلح بالنار أن يكون وعاء

والى هذه المرحلة يمكننا أن نعتبر سير التطور على العموم في كل الامم لعصر ما بدون الرجوع الى محل اقامتها. ولكننا ابتداء من البربرية نصل الى مرحلة تتأثر بالاختلاف في موارد الارض الطبيعية. ولا يمكن بعدها للتطور أن يطرد مع كل الامم التي تسكن البقاع المختلفة على السواء. والعلامات الظاهرة في مرحلة البربرية هي تدجين الحيوانات وتحسينها وزراعة النباتات. فقد كان جزء الارض الشرقي المسمى بالدنيا القديمة يحتوي تقريباً على كل الحيوانات الأليفة وعلى كل انواع الحبوب الزراعية لما كانت القارة الغربية امريكا لا تعرف الا حيوان اللاما الأليف ونبات القمح وهو احسن انواع الحبوب. ومنذ ذلك الحين صيّر اختلاف الطبيعة اهالي كل منطقة مختلفين عن اهالي المنطقة الاخرى. وبذلك اختلفت العلامات المميزة لكل مرحلة من المراحل التي جاءت بعد

﴿ المرحلة الوسطى ﴾ وقد ابتدأت في الشرق بتدجين الحيوانات، وفي الغرب

بزراعة نباتات الطعام وريّها ، وكذا باستعمال الطوب المجفّف في الشمس والحجارة للبناء (وحتى غزو اوربا للقارة الغربية لم تكن امريكا قد خرجت بعد من هـذه المرحلة) فقد كان الهنود الذين يسكنون شرق المسيسبي في مرحلة البربرية السفلى يزرعون على مساحات صغيرة في حدائق القمح والبطيخ وبعض نباتات الجنائن . وكانوا يعيشون في بيوت خشبية وعرب مسيّجة. اما قبائل الشمال الغربي وعلى الخصوص أولئك الذين كانوا في المنطقة التي على طول نهر كولومبيا فقد كانوا لا يزالون في مرحلة الهمجية العليا . يجهلون الفخّار وزراعة اي نبات على الاطلاق وكان هنود البويلو Pueblo في المكسيك الجديدة والمكسيكيون وامريكيو اميركا الوسطى والبروفيون Peruvians في مرحلة البربرية الوسطى . فقد كانوا يعيشون في بيوت اشبه بالحصون مصنوعة من الحجارة . ويزرعون الحنطة ونباتات اخرى تتفق مع الطقس والمكان وتزوون الحدائق ريًّا صناعيًّا ويحتفظون ببعض الحيوانات الأليفة فقد وجد عندهم الديك الرومي وبعض الطيور الأخرى وكذا حيوان اللاما . وكانوا يستعملون المعادن — ما عدا الحديد . ولذا لم يكن في مقدورهم السير بدون اسلحة وادوات من الحجارة

واما في الشرق فتبدأ مرحلة البربرية الوسطى بتدجين الحيوانات اللبونة وذات اللحم بينما يظهر أن زراعة النباتات بقيت مجهولة مدة طويلة في هذه المرحلة كما يظهر أن تدجين الحيوانات وتحسينها وتكوين قطعان كبيرة منها هو الذي فصل الآريين والساميين عن باقي البرابرة فلم تزل اسماء الحيوانات مشتركة بين لغات الاوروبيين ولغات الآريين الاسيويين بينما لا يوجد هذا في اسماء النباتات

وقد دعا تكوين القطعان في البلدان الخاصة الى الحياة البدوية كما كانت الحال مع الساميين في سهول الفرات والدجلة ومع الآريين في سهول الهند والدن والدنيبر والمفروض ان تدجين الحيوانات قد تمّ مبدئياً على ضفاف انهر مثل اراضي هذه المراعي

وربما يرجع تقدم الآريين والساميين الى طعام اللبن واللحم . وبالاخص الى تأثير مثل هذا الطعام في نمو الاطفال . ومما يستوقف النظر ان هنود البويلو الذين يسكنون المكسيك الجديدة كانوا يعيشون في الغالب على الأغذية النباتية وكان لهم دماغ اصغر من دماغ الهنود في المرحلة السفلى للبربرية ممن يأكلون اللحم والاسماك . وعلى اي حال فان اكل اللحوم البشرية ابتدأ يختفي تدريجيًّا في هذه المرحلة (وبالطبع لن يسلم بهذا جماعة الناتيين . ونحن لسنا مسلم بأن الغذاء ليس هو العامل الجوهري الوحيد في تقدم الاجناس . بل ان للوسط كذلك اثراً كبيراً في هذا التقدم)

﴿ المرحلة العليا ﴾ وتبدأ بصهر معدن الحديد والخروج الى المدنية باختراع حروف الكتابة والانتفاع بها في التحرير والتدوين. وهذه المرحلة مرحلة ابطال الاغريق والقبائل الايطالية قبل انشاء روما بقليل

وفيها نرى لاول مرة المحراث الحديدي تجرُّه الحيوانات مما جعل الزراعة ممكنة على مساحات واسعة في الحقول . ونتج عن ذلك كشف الغابات وجعلها ارضاً زراعيّة ومراعي — ومثل هذه العملية لا يمكن ان تقوم على مساحات واسعة بدون مساعدة الفأس والشفرة الحديديتين — وطبيعي ان امثال هذه التحسينات قد انتجت زيادة سريعة في عدد السكان اذ احتشد عدد كبير منهم في مساحات ضيقة . وقبل زمن زراعة الحقول كان في الامكان الجمع بين نصف مليون من الناس تحت ادارة واحدة مركزية بشرط صلاحية الاحوال . وهذا لم يكن ميسوراً في كثير من الحالات.

وأبلغ وصف للمرحلة العليا البربرية موجود في أشعار هوميروس وعلى الخصوص في الالياذة . فانت تقرأ فيها عن الادوات الحديدية المحسنة ، والمنفاخ ، وطاحونة اليد ، والعجلة ، وتجهيز الزيت والخمر ، والعربة ، وبناء السفن ذات الالواح والدسر ، والشروع في البناء الفني ، والمدن المسيّجة بالاسوار وذات القلاع الخ . مما نقل الاغريق من البربرية الى المدنية . وبمقارنة هذا بالوصف الذي اعطاهُ « قيصر » و « تاسيتس » وقد كانا في ابتداء عهد التطور الذي كان يستعد فيه الاغريق لمغادرته الى عهد اسمى ، ندرك مقدار ثروة التقدم الانتاجية في مرحلة البربرية العليا

(٣) عصر المدنية

اما عصر المدنية ومراحلها فليس موضوعهُ هذا المقال وهو منشور بين ايدي الطلبة في كل مكان . ويمكن تلخيص العصور المتقدمة كما يأتي :

﴿ عصر الهمجية ﴾ عصر سيادة الملكية للانتاجات الطبيعية حيث ابتدع الانسان الادوات الرئيسية النافعة والمسهلة لهذه الملكية

﴿ عصر البربرية ﴾ عصر تدجين الحيوانات وترقيها ، ومعرفة الزراعة ، والاستزادة في تعرّف الاساليب الجديدة لزيادة الانتاج الطبعي

﴿ عصر المدنية ﴾ عصر الانتفاع الواسع بالمحصولات الطبيعية ، والصناعة ، والفن

ولعل في هذا الشرح الكفاية

محمود حسني المرابي